سورة التكاثر

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

وهي مكية عند الجمهور، وروى البخاري أنها مدنية. وقال ابن عباس نزلت بمكة. (فتح البيان)

أما عند المستشرقين فهي من أوائل السور المكية (تفسير القرآن لـــ"ويري").

وعندي هي مكية إذ تحتوي على الأنباء مثل السور المكية السابقة، ولا يمكن اعتبارها مدنية لمجرد ذكر المال فيها، لأن أهل مكة أيضا كانوا أهل مال في نطاق ظروف بلدهم المعيشية، وهذه السورة تتحدث عن أموال الكافرين أنفسهم.

الترابط والترتيب:

إن ما يربط هذه السورة بما قبلها هو أن السور السابقة تحدثت عن طوائف الكفر كلها، مبينةً أن الرسول ﷺ سيقوم بإصلاح الناس في زمنه وفي المستقبل أيضا. كانت السورتان السابقتان تتحدثان خاصة عن أنواع العذاب الذي سيحلّ في زمن الرسول ﷺ وفي الأزمنة الآتية بعده نتيجة كفر الناس، أما هذه السورة فتبين أسباب كفر الناس وبُعدهم عن الله ثم بُعدهم عن الدين في نهاية المطاف، رغم اهتدائهم إلى الحق على أيدي أنبيائهم أول الأمر.

لقد نقل الحاكم والبيهقي بصدد هذه السورة عن ابن عمر: قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: ما يستطيع أحدكم أن يقرأ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ؟" (شعب الإيمان للبيهقي، والمستدرك للحاكم)

وهذا يعني أن رسول الله ﷺ قد اعتبر سورة التكاثر تماثل ألف آية.

كذلك ورد عن عمر بن الخطاب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَن قرأ في ليلةٍ ألفَ آية لقي الله وهو ضاحك في وجهه. قيل يا رسول الله، ومَن يقوى على ألف آية؟ فقرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها، ثم قال: والذي نفسي بيده إنها لتَعدِل ألفَ آية." أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق والديلميُّ. (فتح البيان)

المراد مما قاله الرسول ﷺ هنا أن التكاثر نوعان: فمِنه ما يكون سببًا لازدهار الأمة، ومِنه ما يسبّب دمارها، وحيث إن هذه السورة تتحدث عن التكاثر المؤدي إلى دمار الأمة، فعلى المرء أن يعمل بما ورد فيها ليُحفَظ من الدمار. لهذا السبب اعتبر رسول الله ﷺ أن هذه السورة تساوي ألفَ آية. وليس المراد أنها تساوي سُدس القرآن حيث يحتوي القرآن، على ستة آلاف آية تقريبا، إنما المعنى أن هذه السورة تبيّن الهدف من نـــزول القرآن. ذلك أن عدد الألف لا يعني في العربية الألف فقط، بل يعني الزيادة التي لا نهاية لها أيضًا. والواضح أن المرء لا يمكن أن ينتفع من القرآن نفعًا لا نهاية له إلا إذا فهم الغرض الذي من أجله يقيم الله تعالى النبوة، والذي من أجل تحقيقه لم يزل يبعث المأمورين من عنده لإصلاح العالم منذ آدم عليه السلام. فقول الرسول ﷺ إن هذه السورة تساوي ألف آية يعني أنكم إذا تدبرتم فيها وأخذتم مفاهيمها في الحسبان ووضعتم معانيها نصب أعينكم دائمًا، عندها يمكن القول إنكم انتفعتم منها نفعًا يُعتبر الهدفَ مِن بعثة الأنبياء كلهم. إنما الهدف من بعثة الأنبياء أن يخمد حب الدنيا في القلوب ويحلّ مكانه حبّ الله تعالى، ومن تدبر هذه السورة وتخلى عن حب الدنيا ورجع من حالته السيئة إلى الحالة الطيبة، فلا شك أنه قد حقق الهدف الذي من أجله نزل القرآن والذي من أجله أقام الله سلسلة النبوة في العالم. وقد ركز المسيح الموعود عليه السلام أيضا على هذا الأمر في كتبه وخطبه كثيرا، وبيّن أن الهدف الأساس لبعثة الأنبياء أن يبرد حب الدنيا في القلوب ويحلّ حبّ الله محلّه. (مجموعة الإعلانات ج ١ ص ٣٠٢). فحيث إن سورة التكاثر تبيّن الهدف الأساس من النبوة وتحث على ترك حب الدنيا، لذلك فمن جعل مطالبها في الحسبان شابَه الأنبياء حالةً.

وهناك روايات أخرى عن أهمية مضمون هذه السورة، فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وفي لفظٍ: وقد أُنزلتْ عليه ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وهو يقول: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي؟ وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ إلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ. (فتح البيان). وقد أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة و لم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها. وكلمات الرواية طويلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿٢﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

أَلْهَاكم: ألهاه اللعب عن كذا: شَغَلَه. (الأقرب)

التَّكَاثُرُ: تكاثَرَ القومُ: كثُروا وتَغالبوا في الكثرة (الأقرب). وقال صاحب المفردات: "التكاثرُ التباري في كثرة المال والعزّ."

فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾: شَغَلَكم التفاخرُ في المال والعزّ والعدد وغيرها من متع الدنيا.

التفسير: يقال عادةً: ألهاه عن كذا، وتكاثرَ في كذا، ولكن القرآن الكريم قد ذكر الفعل مجردا دونما تخصيص، أعني لم يقل: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ في كذا عن كذا، مما أدّى إلى توسيع نطاق مفهوم هذه الآية جدًّا. أما لو خصّص الإلهاء والتكاثر لصار المعنى محدودًا و لم يعُدْ الكلام فصيحًا كما هو مع هذا الإيجاز؛ لأن التكاثر لا يكون في شيء واحد، ثم إنه لا يلهي الإنسان عن حسنة واحدة، بل يجعله غافلا عن جميع الحسنات، فالتكاثر يعني غلبة الكبر والأنانية. لماذا يتفاخر المرء على غيره؟ إنما سببه أنه يرى نفسه كبيرا بدلاً من أن يُرجع ما عنده إلى فضل الله تعالى. إنه يتناسى أن كل ما عنده من كفاءات أو ميزات إنما هي من عطايا الله، ولكنه يغضّ الطرف عن

هذه الحقيقة مركّزًا على كبريائه وأنانيته فيظن أن كل ما حققه إنما حققه بقوته وكفاءته. فأولُ نتائج التفاخر على الآخرين أن الإنسان يُصاب بالكبرياء والأنانية غافلاً عن الله تعالى الذي لم يحصل له الرقي إلا بفضْله ﷻ.

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ ذكر مرة شيئًا من خصوصيّاته ثم قال: ولا فخر، أي لم توجد فيّ هذه الميزة إلا بفضل الله تعالى. وهذا يعني أن المؤمن لا يتفاخر رغم كونه كبيرًا، لإدراكه أن ما يوجب الفخر لم يتيسر له تلقائيا، وإنما الله الذي خلَقه فيه، أما غير المؤمن فلا يفعل هكذا، لذا فكلما أصيب المرء بالتكاثر، تفاخرَ بكثرة نفره وعزه وماله وقوته، وبالتالي غضّ الطرف عن الله تعالى ونسب إنجازه إلى نفسه. فالتكاثر يحجب فضل الله عن الإنسان أولاً، ثم ذاتَ الله أيضًا. إن الذي لا يبرح يصرخ بين الناس: أنا أنا، لا يمكنه أن يرى أحدًا أكبر منه. وإلا فمتى يمكن لشخص واقف أمام الشمس أن يتفاخر بحمل سراج قائلا: انظروا ما أشدَّ ضوءَ سراجي! يمكنه أن يتفاخر بضوء مصباحه بالليل، لكن لا يمكنه ذلك وقت النهار، وإذا فعل ذلك فهذا دليل بيّن على أن الشمس محجوبة عنه، وإلا لما تفاخر بضوء السراج بيده والشمس طالعة؟ كذلك إذا اعتبر المرء نفسه أكبر من الآخرين فليس معنى ذلك إلا أن الله تعالى قد غاب عن أنظاره واختفى. فثبت أن أول نتائج التكاثر أن موجبات الفخر –وهي الصفات الإلهية– تختفي عن أنظاره، ثم يختفي عنه الله ﷻ أيضا بالتدريج. فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.. أي أنه جعلكم غافلين عن صفات الله وذاته.

ثم إن كل ما ينـــزل على المرء من أفضال الله تعالى إنما ينـــزل بواسطة الملائكة. إن الملائكة وسيلة من وسائل رقي الإنسان ورفعته، ومن واجبه ألا يغضّ الطرف عنها أبدا. ولكنه إذا تكبر وتفاخر فلا يغفل عن ذات الله وعن صفاته فحسب، بل ينسى أيضا أنه لم يحرز ما أحرزه من عز ومال وصيت بجهوده الذاتية فقط، بل بمساعدة الملائكة، فهي التي تهيئ بأمر الله تعالى جميع أسباب النجاح والرقي.

ثم إن أيّ عز أو ميزة أمرٌ نسبيّ دائمًا، إذ لا يُعتبر أحد كبيرًا إلا مقارنةً بغيره، ولولا هذه النسبيّة لا يبقى هناك كبير. هذه حكمة بالغة بيّنها القرآن الكريم، لكن

بعض الحمقى يعترضون عليه نتيجة جهلهم بهذه الحقيقة، فيقولون إن القرآن كتاب عجيب، حيث يعتبر البعض كبيرا في مكان ويعتبر البعضَ الآخر كبيرًا في مكان آخر، مع أنه من المحال أن يكون الجميع من الكبراء؟ هؤلاء الأغبياء لا يدركون أن اعتراضهم يدل على حمقهم وغبائهم، وإلا فإن ما بيّنه القرآن الكريم هو الحكمة بعينها. إن ما يعنيه القرآن هو أنكم إذا رأيتم في الدنيا عظيمًا فإن عظمته أمر نسبيّ فقط، إذ لا يعلم الجزئيات كلها إلا الله. عندما تحرز أمة تقدّمًا في الدنيا تظنّ خطأً أنها قد أحرزت إنجازًا كبيرا لم يسبق له مثيل لدى أي أمة، ولكن انكشاف حقائق التاريخ الماضي بالتدريج يبين أنه قد كان في الماضي مَن قاموا بإنجازات مماثلة. هناك عشرات المخترعات التي كانت أوروبا تدعي قبل نصف قرن أنها أول مَن اخترعها، ولكنها اضطرت اليوم للاعتراف أن هذه الأشياء كانت موجودة في العالم قبلهم. ثم إننا لا ندري كم من مخترعات عظيمة كانت موجودة في عصور سحيقة قد انمحى تاريخها كليّةً. وعندما ينمحي التاريخ الحاضر مستقبلا فلا ندري كيف تكون الدنيا، وما هي الأمور التي سوف يتفاخر بها أهلها؟

كنتُ متأثرا جدًّا من تقدم الأوروبيين في مجال الجراحة، وكنت أظن أنهم قد طوَّروا هذا العلم كثيرا، لكني قرأت ذات يوم كتيبًا صغيرا لأبقراط حول الجراحة، فانبهرت مما قرأت فيه، حيث أحصى العمليات الجراحية المعقدة التي قام بها لمختلف أعضاء الجسم مِن كُلى وغيرها، فقال: قمت بعمليات للعضو الفلاني كذا مرة والعضو الفلاني كذا مرة. كما ذكر أسماء الأجهزة التي استعملها فيها. مما يعني أن علم الجراحة كان متطورا في الماضي، وكان الأطباء ماهرين في هذا الفن وكانوا يُجرون العمليات الجراحية، وكانت هناك أجهزة مختلفة للجراحة. ولكن قد أتى على الناس زمان بعد ذلك اندرست فيه هذه العلوم من الدنيا. هناك مخترعات كثيرة اخترعها المسلمون، لكن أهل أوروبا يظنون اليوم أنهم مخترعوها. خذوا مثلاً علم البكتيريا والجراثيم الذي يُعتبر ذروة البحوث الطبية المعاصرة، حيث يظن هؤلاء أن هذا العلم لم يوجد في الماضي، لكن أحد الكتّاب الأوروبيين قد تناول هذا الموضوع في كتاب له حيث أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن علم الجراثيم كان

موجودا، وأن المسلمين هم أول من قاموا بالبحوث والتجارب بشأنه حتى وصلوا إلى آخر مراحلها، ولكن لم يكن عندهم "المجهر" فلم يستطيعوا أن يطلقوا اسمًا على هذه الكائنات، وإلا فإنهم كانوا قد اطّلعوا على كل ما يذكره علماؤنا اليوم من مواصفات الجراثيم والبكتيريا. وقد ضرب لذلك مثالاً فقال: إن الملك المسلم عندما أراد إنشاء مدينة بغداد دعا طبيبًا وأمره أن يخبره بالمكان المناسب لبناء المدينة بعد تفحّص الأمر. ويذكر هذا الكاتب الأوروبي إن اختيارَ الملك طبيبًا وأمْرَه بأن يشير عليه بالمكان المناسب لتأسيس المدينة لدليل ساطع على أن الملوك المسلمين كانوا ملمّين بعلم الطب لدرجة أنهم كانوا يدركون أن أمرَ تأسيس مدينة وثيقُ الصلة بالطب، فعيّن هذا الطبيب لفحص الأمر. ثم يقول الكاتب إن هذا الطبيب أمر بذبح خروف ووضع لحمه في مناطق مختلفة، ثم فحص هذا اللحم، وبناءً على ذلك أشار على الملك أن يبني قصره في مكان كذا، ومعسكره في مكان كذا، ومساكن الناس في مكان كذا، إذ وجد أن اللحم قد تعفن وفسد في بعض الأماكن بينما لم يفسد كثيرًا في بعضها، مما يعني أن هواءَ المكان الذي فسد فيه اللحم أكثرُ عفونة وتلوثًا، وأن هواءَ المكان الذي كان لحمه أقل فسادا أنقى وأصفى. ثم يقول هذا الكاتب إن هذه الواقعة تدل بوضوح أن المسلمين كانوا على علم بوجود البكتيريا قبل مئات السنين، كل ما في الأمر أننا رأينا اليوم البكتيريا من خلال المجهر، أما المسلمون فقد علموا من خلال البحوث العلمية أن نقاء الهواء أو عدمه متوقف على وجود بعض الأشياء غير المرئية، فالمكان الذي توجد فيه هذه الكائنات غير المرئية فإن هواءه متعفن وضار بصحة الإنسان، والمكان الذي يكون خاليا منها فإن هواءه جيد للصحة.

فهذا هو العلم الذي اخترعه المسلمون وانتفعوا به في عصر نهضتهم، ولكن أجيالهم اللاحقة نسوه كما نسي العالم مَن الذي اخترعه، حتى أتى الباحثون الأوروبيون اليوم فاكتشفوا وجود الجراثيم والبكتيريا فظنوا أنهم أول مكتشفيها، مع أن الواقع أن المسلمين سبقوهم في هذا العلم.

فثبت أن الإنسان المتفاخر يتناسى الحقيقة أنه قد كان في الماضي أُناس عظام، وكانوا ذوي صيت وشهرة في عصورهم، فلا داعي له للتفاخر بالإنجاز؟ إذن، فالمتكاثر لا يتناسى صفات الله تعالى ولا ذاته ولا الملائكة فحسب، بل ينكر علوم الماضي ومخترعاته أيضًا، ويظن أن آباءه وأجداده كانوا جاهلين، وأنه هو صاحب العلم الكامل.

فأول نتائج التكاثر إنكارُ الحقائق الثابتة، ثم الكبر، ثم ظلم الفقراء، لأن المتكاثر لا يفكر أن الله تعالى قد أعطاه المال لخدمة الفقراء، إنما يقول في نفسه إنني كبير، ومن حقي أن أُخدَم وعلى الآخرين أن يدخلوا في طاعتي، وبالتالي يغض الطرف عن الأخلاق الفاضلة تدريجيا.

فحيث إن التكاثر يحرم الإنسان من حسنات كثيرة، فلم يذكر الله تعالى هنا الأمر الذي يلهي التكاثرُ الإنسانَ عنه. فلم يقل مثلا: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عن الله وعن صفاته وعن ملائكته وعن أنبيائه وعن الأخلاق وعن العبادات وعن حقائق التاريخ وما إلى ذلك، لأنه تعالى لو ذكر هذا التفصيل لظلّ البيان ناقصا أيضًا، فذكر الأمر مجملا، لكي يفكر الإنسان في كل الأمور التي يمكن أن يتغافل عنها نتيجة التكاثر، وهكذا اتسع نطاق العبرة من هذا البيان جدًا. فالحكمة في إطلاق التكاثر هنا أولا: الإشارةُ إلى أن كل الأمور التي يمكن أن ينساها المرء نتيجة التكاثر متضمَّنةٌ في هذه الآية، وأن التفاخر لا يحرم الناس من حسنة واحدة، بل من جميع الحسنات.

وثانيا: لم يذكر الله تعالى الشيء الذي كانوا يتكاثرون فيه ويتفاخرون. وهذا الإطلاق أيضا يفيد توسيع مفهوم الآية. ذلك أن الكافرين كانوا يملكون كل شيء أكثرَ مما عند المسلمين. فكانوا يتفاخرون بتجارتهم وسعة علاقاتهم وكثرة أموالهم وفتيانهم وفرسانهم وخبرتهم الحربية وشعرائهم الذين كانوا يسحرون ببيانهم، وخطبائهم الذين كانوا يُذْكُون عواطف القوم، وشيوخهم وكبارهم وحكمائهم الشهيرين بحكمتهم وحنكتهم، وبالأمهات اللواتي كانت قلوبهن عامرة بالمشاعر القومية، وبجنودهم الذين كانوا يفدون بأرواحهم من أجل الشعب، وغيرِ ذلك من الأمور التي كانوا يحتقرون المسلمين لقصر باعهم فيها معتبرين دعاويهم غير معقولة

وغير مستندة إلى دليل وبرهان. والقرآن الكريم لم ينكر ادعاء كثرتهم في كل شيء، بل سلّم بأنهم أكثر من المسلمين عددًا ومالا وعتادا وأحزابا، ولكنه قال لهم إن كثرتكم في هذه الأمور قد حرمتْكم من الأخلاق الفاضلة والدين. والإنسان لا يعيش بالمال والثراء، بل بالأخلاق والتواضع. فهذه الكثرة لن تنفعكم بل ستضركم. لو كنتم أقلّ عتادا وأسبابًا لاجتهدتم لرقيكم، ولكن كثرة الوسائل والأسباب جعلتكم غافلين كسالى ومجردين من الأخلاق التي لا بد منها للإنسان، والتي من دونها لا يمكنه أن ينال ثراءً دائما. فالحق أن ثروتكم لن تنجيكم، بل ستؤدي إلى هلاككم، لأن الراكب الموشك على السقوط أضعفُ من طفل، والبناء المتهافت أضعف من كوخ.

وقد حاول البعض في بعض الروايات تضييق عموم هذه السورة وبالتالي تحديد مطالبها الواسعة، فروى الكلبي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيُّهم أعزُّ في الإسلام، فأخذ الطرفان يُحْصُون رؤساءهم وقادتهم وقضاتهم، فسبقت بنو عبد مناف بني سهم، فقالت بنو سهم: قد سبقتمونا بالأحياء، فتعالوا نتسابق بالأموات لنرى أيّنا ضحّى في سبيل الإسلام أكثر، فذهب الطرفان إلى المقابر وتكاثروا بالأموات، فنـــزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (الكشاف). بينما تقول رواية عن أبي هريرة أن هذه السورة نزلت في قبيلتين أنصاريتين بني حارثة وبني الحرث حيث تفاخروا وتكاثروا بالأحياء أولاً ثم بالأموات (روح المعاني). بينما يقول مقاتل وقتادة إن هذه السورة لا تتحدث عن بني عبد مناف ولا بني سهم ولا بني حارثة ولا بني الحرث، بل نزلت في اليهود (فتح البيان).

إن تشتُّت هذه الروايات واختلافها يؤكد أنه لم يثبت عن الرسول ﷺ أي قول قطعي بهذا الشأن، وإلا لما روَوا ثلاث روايات متناقضة؛ إذ قال بعضهم إنها نزلت في الأنصار وبعضهم في اليهود وبعضهم في بني عبد مناف وبني سهم. لقد بيّنت مرارا أن القول أن هذه السورة نزلت في فلان لا يعني إلا أنها تنطبق على ذلك الحادث أيضا، وليس أن الله تعالى أنزلها بعد هذا الحادث. من الممكن أن بني حارثة وبني الحرث تنافسوا مرةً، فقال لهم البعض إنكم كالذين قال الله فيهم ﴿أَلْهَاكُمُ

التَّكَاثُرُ﴾، أو قد يكون بنو عبد مناف وبنو سهم قد تفاخروا فيما بينهم فقال لهم الرسول ﷺ: ما هذا العبث الذي خضتم فيه؟ إن مثلكم كمثل قوم قال الله فيهم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، لكن هذا لا يعني أن هذه السورة نزلت من أجلهم، ذلك لأن القرآن الكريم قد نزل لإقامة النبوة الحقّة ولإرساء الإسلام، وليس لبيان قصص الشجار بين هذه القبائل. نعم، لو كان خصام كهذا قد حصل فعلاً فيمكن تطبيق هذه الآية عليه. فمثلاً لو كنتَ تمر في السوق، فوجدتَ اثنين من أصحاب المحلات يتشاجران وقال أحدهما للآخر: من أنت؟ فأنت لا تساوي أمامي شيئًا، فعندي كذا من المال والأرض والعقار والماشية والخيل، أما أنت فلا تملك شيئا، فيمكن أن تقول لهما: ما هذا العبث الذي أنتما فيه؟ قد حرمكم التكاثر من الأخلاق الفاضلة كلية. فقولك هذا لا يعني أن هذه السورة نزلت من أجل هذين المتخاصمين فقط، إنما المراد أن مفهومها ينطبق عليهما أيضًا. إذن، فإن ما ورد بشأن نـــزول هذه الآية إنما يعني فقط أنه قد وقعت في زمن الصحابة أحداث تنطبق عليها هذه السورة، وإلا فإنها تحتوي على مفاهيم واسعة.

ولأن هذه السورة تتحدث بصيغة الماضي، فتساءل البعض عن حكمة ذلك. وحيث إن المفسرين قد فسروا قوله تعالى ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ بمعنى موتهم ودخولهم القبور فقالوا قد استُخدم الفعل الماضي هنا للتأكيد على وقوع هذا الأمر.. أي لأن هذا الأمر سيتحقق حتمًا ولا مفر لأحد من الموت فاستخدم الله هنا الفعل الماضي بدلاً من المضارع لبيان أنه أمر قطعي يقيني.

ولكني أراه قولاً سليما، لأن صيغة الماضي تُستعمل للتأكيد على وقوع أمر يكون خفيا عن أعين الناس. فمثلا قد أنبأ القرآن سلفًا عن انتصار محمد رسول الله ﷺ ودخوله مكة فاتحًا، وكان هذا أمرًا خفيا عن أعين الكفار أعني أنهم ما كانوا ليسلِّموا أنه ﷺ سيدخل مكة مع أصحابه فاتحًا منتصرًا عليهم، فاستعمل الله صيغة الماضي ليخبرهم أنهم لا يصدقون هذه النبوءة، لكنه أمر قطعي يقيني كالحدث الماضي الذي لا شبهة في وقوعه. أما زيارة القبور أو الدخول فيها فأمرٌ لم ينكره

الكفار قط، وكانوا يعترفون أن كل إنسان يموت حتمًا، فلا تنطبق هذه القاعدة هنا، وإنما تنطبق حين يريد المتكلم تأكيد أمر يرفضه الآخر.

وقال البعض: القاعدة الكلية أن الأمم لم تزل تتكاثر فيما بينها دائما، وحيث إن الأموات أكثرُ من الأحياء فاستعمل الله صيغة الماضي نظرًا إلى كثرة السابقين. ويبررون رأيهم بقولهم أن الحديث يخبرنا أن الرسول ﷺ قد بُعث في الزمن الأخير، كما أنه من الحقائق الثابتة أنه قد خلت قبله ﷺ أمم كثيرة زَمَنُها عِدَّة آلافٍ من السنين، فاستعمل الله صيغة الماضي لأن أكثر الناس كانوا في الماضي. فمن قواعد العربية استعمال الكلمة نظرًا إلى الجماعة التي تشكّل الكثرة والغلبة؛ كذِكْرِ القرآن الرجالَ دون النساء في أحكام الصلاة والصوم مرارا كونهن مشمولات في ذكرهم، كذلك يقول أصحاب هذا الرأي بأن الذين خلوا في الماضي هم أكثر من الذين يأتون في المستقبل فاستعمل الله هنا الفعل الماضي وقال ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

هذا المعنى أكثر معقولية من السابق، ولكن فيما يتعلق بحجتهم أن الرسول ﷺ جاء في الزمن الأخير فلا بد أن يكون الذين خلوا في الماضي أكثر من الذين يأتون فيما بعد، فهو مجرد ادعاء لا دليل عليه. لا شك أن الرسول ﷺ بُعث في الزمن الأخير، إلا أنه لا يسع أحدًا إنكار أن عدد سكان العالم كله في الماضي كان أقل من عدد سكان الهند وحدها اليوم. في الماضي ما كان الناس يعرفون أهمية الأمن والسلام ولم تتيسر لهم وسائل الانتقال والاختلاط فيما بينهم، ولم تكن العلوم ولا المخترعات كثيرة، كما كان الناس يجهلون المبادئ التي ترفع مستوى حياتهم والوسائل التي تزيد عددهم. كان التمدن والسياسة والعلم في حالتها البدائية، ولم يكن بين سكان مختلف أنحاء العالم اتصال واختلاط كما هو حالهم اليوم. لقد جعل الله تعالى عصر النبي ﷺ عصر تكميل الهداية وتكميل إشاعتها، ولذلك بدأ في العالم منذ بعثته ﷺ انقلاب غير عادي، حيث أدرك الناس أهمية الأمن والسلام، وانتشر العلم في مختلف أنحاء العالم وأخذ التمدن يتطور بسرعة، وبدأت مرحلة جديدة من وسائل التنّقل والاتصالات، وأخذ الناس يعيشون كبلد واحد بدلاً من أن يعيشوا

قبائلَ متفرقة مشتّتة، وقامت بين أمة وأخرى ومِصرٍ وآخر أواصر قوية، وتيسرت للناس مرافق السفر، فأخذت الأمم تلتقي وتختلط بكثرة. كما تيسرت لهم لعمران الأرض وسائلُ لم تخطر ببال أحد في الماضي، فكل هذه الأسباب أدّت إلى ازدياد سكان العالم زيادة كبيرة.

إذن، فلا شك أن الرسول ﷺ بُعث في الزمن الأخير، لكن من المحال الجزمُ أن سكان العالم قبله كانوا أكثر عددًا من الذين سيأتون بعده. فلا دليل على القول أن عدد المؤمنين والكافرين بعد زمن ظهوره ﷺ إلى يوم القيامة أقل من عدد المؤمنين والكافرين الذين خلوا من قبل. هذا ليس صحيحًا على الأغلب، وإن كنا لا نستطيع الجزم بذلك.

وأرى أن كل هذه الأقوال لا علاقة لها بالآية، وإنما يخاطب الله تعالى هنا أهل مكة مبيّنًا لهم سبب انحطاطهم وهلاكهم دينيا وماديا. وحيث إن الدليل العقلي ينطبق دائما وعلى كل حالة، فقد صارت هذه الآية قاعدة كلية أيضا، ولا بد من الاعتراف أنها إذا انطبقت عليهم فستنطبق على الأمم مستقبلا أيضًا. فمثلا إذا قلنا لزيد لا تأكل السم وإلا فتهلك، فلا يعني ذلك أن هذا الأمر خاص بزيد، بل كل من يأكله يهلك، وهكذا صار هذا الأمر قاعدة كلية.

وعندي أن المقابر هنا ليست المقابر المادية، بل هي إشارة إلى الهلاك والدمار، وهكذا تتسع معاني هذه الآية من دون أن نحتاج إلى تأويل غير عادي. يقول الله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إذ جعلكم غافلين بحيث لم تعودوا قادرين على العودة إلى الحسنات التي منعكم منها التكاثر حتى أوشكتم على الهلاك وحان دماركم. فقوله تعالى ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ إنما هو أسلوب للكلام ولا يعني مقابر مادية، ويماثلها قولنا: هذا الشعب قد مات، أو ذلك الشخص ليس بحي بل هو ميت، والمراد أنه لم تعُدْ فيه الحيوية والصحوة، بل مات من الناحية الأخلاقية والدينية والعائلية والسياسية. فالله تعالى ينفي هنا عن كفار مكة كلَّ المزايا والحسنات التي يحول دونها التكاثر، فلم يبق فيهم دين ولا دنيا ولا أخلاق ولا علم، ومثل هذه الأمة لا تموت ميتة واحدة، بل قد تموت ألف ميتة. فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾

أنه قد جاء عليكم فترة زوال وهلاك لا يحيا بعدها أي قوم. ورغم أن الخطاب هنا موجه إلى أهل مكة إلا أن الآية تبين قاعدة كلية بأن الأمة التي تخوض في التكاثر تصل إلى المقابر، أي تهلك وتُباد من العالم إلى الأبد في نهاية المطاف.

باختصار، لقد نبه الله هنا الكافرين إلى ما يؤدي بالأمم إلى الغفلة عن الله وعن رسالته وإلى هلاكهم في النهاية. وبالفعل نرى أن الله تعالى كان قد كتب لأهل مكة عزًّا كبيرا بواسطة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. لقد بعث الله تعالى بينهم هذين النبيّين اللذين بلّغاهم رسالة الله التي نفخت فيهم روح الحياة وشحنتهم بصحوة. كانت مكة واديًا غير ذي زرع وعمران، وكانت أمم عاد وثمود تحكم بلادهم منذ زمن طويل، ولكن الله تعالى قد أحدث فيهم الثورة ببركة إيمانهم بهذين النبيين (إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام) حتى نالوا الملك ودانَ لهم العرب جميعا. ومِن سنن الله تعالى أنه إذا نالت أمةٌ عزًّا روحانيا فإنما تناله من خلال بعثة نبي ومأمور رباني، ولكن من نتائجه الحتمية أن ينالوا العز المادي أيضا، ذلك لأن الناس لا يتمالكون برؤية عظمتهم المادية إلا أن يثنوا عليهم. كان إبراهيم عليه السلام نبيًا ولم يكن صنّاعًا أو تاجرًا كبيرا، ولم يُبعث إلى أمته ليمنحهم صناعة أو تجارة أو حكومة، بل ليمنحهم قرب الله تعالى، ولكنهم بسبب دينهم نالوا الحكم المادي ، فلم ينالوا قرب الله تعالى فحسب، بل المُلك والحكم أيضا. فثبت أن من سنن الله تعالى أن أمة إذا حازت قرب الله تعالى بواسطة نبيها حازت الدنيا أيضا. وسبب ذلك أن قرب الله تعالى يقوّم أخلاق الإنسان، وإذا صلحت أخلاق الإنسان خضعت له أعناق العالم تلقائيا. لم يُبعث حتى اليوم نبيٌّ لم يرفع قومه المقهورين الأذلاء من الحضيض إلى القمة. كيف كانت أمة موسى عليه السلام؟ كانوا يقومون بأعمال الطين واللبن، ولكنهم ببركة إيمانهم به أصبحوا ملوكا. وكيف كانت أمة عيسى عليه السلام؟ كانوا صيادي سمك عاديين، ولكنهم ببركة إيمانهم به نالوا المُلك. وكيف كانت أمة الرسول ﷺ؟ كانوا رعاة إبل، ولكنهم ببركة إيمانهم به ﷺ صاروا ملوك العالم. فالأنبياء لا يأتون بالدين فحسب، بل تحرز جماعاتهم الغلبة المادية أيضا بمرور الأيام. وفي أيام غلبتهم تتأثر مِن شوكتهم المادية الأممُ التي لا تتأثر بورعهم

وتقواهم وروحانيتهم، ويقولون: لا قِبل لنا بهؤلاء القوم، فقد نالوا قوة عظيمة. باختصار، إن جماعة المؤمنين لها وجهان: وجهها الذاتي، والوجه الآخر الذي يراه الناس. عندما يفكر المؤمنون في أنفسهم يقولون الحمد لله إننا مؤمنون بوحدانيته، ونتحلى بالأخلاق، ونعمل بأحكامه بصدق وأمانة. لقد منّ الله علينا إذ بعث فينا نبيًا من عنده، ووفّقنا للإيمان به وطاعته. أما غيرهم فلا يفهمون هذه الحقيقة، وإنما يثنون عليهم برؤية شوكتهم وعظمتهم المادية ويقولون: ما أعظمَ هؤلاء قوةً ومنعة! عندما كان الصحابة ينظرون إلى أبي بكر ﷺ بإعجاب فليس لأنه ملِكٌ، بل لأنه عاش في صحبة الرسول ﷺ وقدّم في سبيل الإسلام تضحيات جسيمة، وإذا نظروا إلى عمر ﷺ فلم ينظروا إليه من حيث شوكته المادية، إنما من حيث خدماته العظيمة للإسلام. إنهم كانوا يرون أن ميزتهما أن في صلواتهما وأدعيتهما وصيامهما وتقواهما بركةً، وأن الله تعالى قد اصطفاهما لقربه. لكن ما الذي كان يراه النصارى واليهود فيهما؟ لم يكونوا يرون أن أبا بكر إنسان عابد، وأن أدعيته مجابة أو أنه قد ضحى في سبيل الإسلام ومحمد رسول الله ﷺ كثيرا. كانوا عميانا بالنسبة إلى هذه الأمور، وإنما كانوا يرون أن أبا بكر وعمر مِلكانِ عظيمان قد هزما قيصر ودمّرا كسرى واستوليا على بلادهما، وضما إلى جماعتهما كبار الناس. هذا يعني أنه عندما تحرز أمةٌ الغلبة من خلال نبي تسمع صوتًا جديدا بأن هؤلاء القوم قد صاروا عظماء حقًا. قبل إحرازهم الرقي المادي ترتفع الأصوات بأن هؤلاء قوم يصلّون ويصومون ويدْعون الله ويُخرجون الصدقات والتبرعات ويتفقدون الفقراء واليتامى والمساكين، ولكن عندما يصبحون غالبين على الأمم الأخرى يسمعون الناسَ يقولون عنهم: كيف نقاوم هؤلاء القوم، فقد أصبحوا ذوي ثراء ونفوذ وصارت لهم رعايا كُثُر. وتكون نتيجة هذا الثناء أن أتباع النبي عندما يبتعدون زمنًا، ويموت الذين عاشوا في صحبته والذين كانوا يدركون أنهم ليسوا بشيء وأن كل ما أحرزوه إنما هو فضل الله، وأن ما سيحرزونه في المستقبل إنما يحرزونه بفضله أيضا، فإن أجيالهم وأولادهم يُصغون إلى الأصوات التي تثني عليهم بدلاً من أن يُصغوا إلى أصوات ضمائرهم، فيقولون في أنفسهم: مِن واجب الناس الآن أن يصبحوا عبيدًا

لنا. وبالفعل ترى أن الصحابة نالوا عزًّا كبيرا بعد إيمانهم بفترة، وأعطاهم الله المُلك والحكم، ومع ذلك كانوا يقولون في أنفسهم: كنا رعاة إبل. ولذلك لم ينشأ فيهم الكبر والغرور مِن حكمهم. فعندما فُتحت كنوز كسرى جاء في الغنائم المنديل الذي كان يضعه كسرى في يده وقت جلوسه على العرش. ربما كان كسرى يعظم هذا المنديل، ولكن الصحابة ما كانوا ليقيموا لمثل هذا المنديل وزنا، إذ كان يرون العظمة كلها في الصلاة والصيام والحج والزكاة والصدقة والتبرعات وإطعام الفقراء وتعليمهم وتربيتهم. لا أقول أنهم كانوا لا يقدرون نِعم الله المادية، إنما أقول إنهم كانوا يحتقرون الأشياء المادية مقابل نعمة الإيمان بمحمد ﷺ التي أنعم الله بها عليهم. فكما أن الشباب الذين يحبون كل صرعة جديدة يضعون اليوم في جيبهم منديلا ويخرجون جزءا منه لكي يراه الناس، كذلك كان كسرى يحمل هذا المنديل في يده أثناء جلوسه على العرش، فصار هذا المنديل من نصيب أبي هريرة عند توزيع الغنائم، وفي أحد الأيام أصابه سعال فبصق في هذا المنديل، ثم خطرت بباله فكرة وأخذ يقول: بخ بخ أبا هريرة.. أي ما أعظمَ شأنَك يا أبا هريرة، فقد كنت تُضرَب بالنعال من شدة الجوع، أما اليوم فتبصق في منديل كسرى؟! فسأله مَن حوله: ماذا تقول يا أبا هريرة؟ قال: لقد أسلمتُ متأخرًا إذ لم يعش النبي ﷺ بعد إيماني إلا ثلاث سنوات، فعاهدت نفسي أن لا أترك باب رسول الله ﷺ، فإن الناس قد سمعوا من حديثه كثيرا وأنا لم أسمع منه شيئا، ولا أدري كم بقي من حياته ﷺ، فأسمع الآن كل ما يقول وأحفظه دون أن أفارق بابه. فكنت ألازم المسجد كل الأوقات ولا أتحرك من هنالك لكسب المعاش مخافة أن يخرج النبي ﷺ من بيته ويقول قولاً فيسمعه الناس ﷺ وأظل محروما منه. فإذا أعطاني إنسان طعامًا أكلتُه شاكرًا لله تعالى، وأحيانًا كنت أعاني من الفاقة لأيام إذ لم يكن أحد يأتيني بطعام، فكان الضعف يبلغ مني مبلغًا حتى يُغمى عليّ، فكان الناس يظنون أني قد أُصبت بنوبة من الصرع، فكانوا يضربونني بالنعال وأنا مغشي عليّ بناء على ظنهم قبل الإسلام أنه إذا أصيب أحد بنوبة الصرع فعلاجه ضربه بالنعال. فأفكر فيما أنعم الله

الآن، فشتان بين أن يغمى عليّ من شدة الجوع والفاقة فيضربني الناس بالنعال، وبين أن أبصق في منديل ما كان كسرى يطيق أن يتّسخ.

زبدة القول ما كان الصحابة ينسون ما كانوا عليه من ضيق في أوائل الإسلام. كانوا يعرفون جيدًا كيف كانوا في البداية وكيف ازدهروا الآن. كانوا يرون أن كل ما أحرزوه من رقي إنما أحرزوه بفضل الله ونصرته فقط، وليس بأية ميزة ذاتية. كانوا يدركون أنّهم لم يحرزوا هذه النعم المادية لأنها عظيمة في حد ذاتها، بل الأهم هو التقوى والورع، أما هذه النعم فإنما أنعم الله بها عليهم عطاء فحسب. ولكن عندما جاء أولادهم الذين لم يروا زمن الرسول ﷺ، ولم يشاهدوا ضعف الإسلام والمسلمين، ظنوا أن لهم حقًّا على الله وعلى الملائكة وعلى الجماعة وعلى الدين وعلى الناس، وأن من واجب الجميع أن يعملوا على خدمتهم وراحتهم ورخائهم. كما تناهت إلى أسماعهم أصواتُ اليهود والنصارى بأن هؤلاء القوم يملكون ثروات هائلة، فابتُلوا بالتكاثر ناسين ما أنعمَ الله عليهم من نعم. لقد حصل ذلك بأتباع كل نبي بعده. لقد حصل هذا بعد موسى وبعد عيسى وبعد محمد ﷺ، وإن ظل المسلمون متحلين بالتقوى لزمن طويل بفضل الله تعالى، وقليل منهم الذين وقعوا في التكاثر.

باختصار، عندما يثني الناس على جماعات الأنبياء نظرًا إلى مجدهم المادي يتوجهون إلى التكاثر، فيسلكون نفسَ المسلك الذي سلكته الأمم السابقة، وينسون الأصل الذي هو الدين والتقوى، فيسارعون بشدةٍ إلى الدنيا جاعلين إياها هدفهم المنشود، مما يؤدي إلى نتائج ثلاث:

الأولى: تتولد في الناس ردّةُ فعل ضدهم، وذلك أن التكاثر يؤدي إلى الكبر، والكبر يؤدي إلى ظلم الناس وسلب أموالهم، فيثور الناس ضدهم للقضاء على حكمهم.

الثانية: وأحيانًا لا تتولد أي ردّة فعل عند الناس، لكن أولاد هؤلاء الملوك أنفسهم يهدرون أموال آبائهم في الانغماس في الملذات، وهكذا تظهر فيهم آثار الزوال والانحطاط. إن ثروة الآباء تقع في أيديهم مجانًا فينغمسون في الملذات

ويدمِّرون كل ما في أيديهم. وفضلاً عن ذلك شاهدنا أن ملوكا كبارًا انغمسوا في الملذات والملاهي بالعيش مع البغايا وتعاطي الخمر، وأهملوا شؤون الدولة فدمروا أنفسهم وملكهم بأيديهم، حيث تقاسَمَه كبار رجالات الدولة فيما بينهم.

الثالثة: أو أنهم يصطدمون بالله تعالى مباشرة، بمعنى أنه لا يكون هناك أي سبب مادي لهلاكهم، وإنما يُنـــزل الله عذابه عليهم غضبًا عليهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم.

باختصار، عندما تبلغ أمةٌ المقابرَ نتيجة تكاثرها فلا بد من إحدى هذه الحالات الثلاث، فإما أنّ ردة فعل تتولد في الرعايا فيقضون على الحكام، أو أنّ الملوك أنفسهم يُحطّمون أنفسهم بأنفسهم؛ أو أن غضب الله يحلّ بهم فيدمرهم.

واعلم أن السور السابقة العديدة كان تخاطب أهل مكة، حيث حذرهم الله تعالى أن معارضتكم لمحمد ستدفع بكم إلى الهلاك والدمار، ولن تنجحوا مهما سعيتم، أما السورة قيد التفسير فهي أيضًا تخاطب أهل مكة. في السور الماضية قال الله تعالى لهؤلاء الكافرين: لا تطعمون الفقراء، وتدُعّون المساكين دعًّا، ولا تتفقدون اليتامى، وتهدرون أموالكم منغمسين في الملذات، وتكنـــزون أموالكم وتبخلون بها بخلا ولا تنفقونها إنفاقا مفيدا عند الحاجات الضرورية للأمة، كما تظلمون العبيد وتهضمون حقوق النساء وتؤذونهن أنواع الإيذاء، وأما محمد وأصحابه فقد بلغوا في الصلاح والورع الذروةَ، فيطعمون الفقراء، ويرحمون المساكين، ويتفقدون اليتامى، ولا يضيعون أموالهم، ويؤثرون حاجات الأمة على حاجاتهم الشخصية، ويحسنون إلى العبيد، ويدفعون حقوق النساء بأمانة، ولا يظلمونهن بأي طريق. فشتان بينكم وبين محمد وأصحابه. فكيف تحلمون بالانتصار على محمد؟ أما في هذه السورة فقال الله تعالى للكافرين ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.. أي احذروا وانفضوا من رؤوسكم فكرة الانتصار على محمد. هلا فكرتم في أنفسكم لتعلموا أنكم قد سقطتم في الحضيض؟ تحبّون الدنيا ومتعها والمال والعزّ، ولم يعُدْ فيكم ما تحيا به الأمم. هناك طريقان للحياة: إما بالدين أو بالدنيا، ولكن المتكاثر يغفل عن دينه، كما يسقط في الحضيض من الناحية الدنيوية أيضا. إنه يغفل عن

دينه لأن ذات الله تعالى وصفاته تختفي عن أنظاره، ويلقَى الخزي والهوان في دنياه لأن تكاثُره يدفعه إلى الكبر والعُجب، فيهضم حقوق الناس ويظلمهم بطرق شتى. هناك طريقان اثنان فقط لحياة أمة: فإما أن تحيا نتيجة الحماس الديني، أو تحيا نتيجة الحماس المادي، ولكن التكاثر يقضي على الطريقين، ولذلك يقول الله للكافرين: لقد ظهرتْ فيكم آثار الانحطاط الكامل، فكيف تظنون بعدها أنكم ستسحقون محمدا وأصحابه وتحُولون دون الهدف الذي قاموا من أجله؟ الموت يُطلّ على رؤوسكم، وتلفظون آخر أنفاسكم، ومع ذلك تحلمون بالقضاء على الإسلام ومحمد بدلاً من أن تفكروا في حالتكم المتردية؟ والحق أن مَثَلهم كان كمَثَل ثَرِيٍّ موشك على الموت، ويدرك كلُّ مَن حوله أن الموت يطرق بابه وأنه سيرتحل خلال ساعات، فيسقط الدواء من يد الخادم وهو يريد أن يسقيه إياه، فيتميز غيظا وينهره قائلا: ألا تستحي؟ أسْقَطْتَ الدواء؟ لو عُدتَ لمثله فسوف أضربك ضربًا لن تنساه. هذا هو حال الكافرين بالضبط، فإن عادة التكاثر قد دفعت بهم إلى القبور، وأصبح هلاكهم أمرًا يقينا. لقد بلغ بهم الخزي والهوان الذروةَ وماتوا -دينيًا وماديا- ميتةً لن يعودوا منها كما لا يعود أصحاب القبور، لذا فانتصارهم على محمد ليس إلا ضربًا من الجنون. يعود الميت إلى الحياة إذا نُفخ فيه الروح من جديد، أما مِن دون نفخ الروح فيه فلا يعود إلى الحياة أبدا.

هنا ينشأ سؤال لا بد من الرد عليه: إن هذه السورة تخاطب أهل مكة الذين لم يكن عندهم أموال كثيرة، فكيف يُتَّهمون بجريمة التكاثر؟

والجواب أن ثراء كل شعب أمرٌ نسبيّ، إذا كان أثرياء مكة صِغارًا فإن فقراءها أيضًا كانوا أشدّ فقرًا، فثبت أن التكاثر أمر نسبي. لا يمكن لأحد أن يقول إني لا أملك الملايين فلا أرتكب جريمة التكاثر، ذلك أن تكاثُرَ الأمريكان غيرُ تكاثُرِ الإنجليز، وتكاثر الإنجليز غير تكاثر الهنود، وتكاثر الهندوس من الهند غير تكاثر مسلمي الهند، ثم إن تكاثر الأحمديين غيرُ تكاثر المسلمين الآخرين. إذا عُهدتْ إلى أمةٍ مسؤوليةٌ -صغيرة أو كبيرة- فقصّرت في أدائها فقد جنت جناية التكاثر. بل الواقع أنه إذا كان هناك من لا يملك إلا كسرة خبز، فبخل بها عند مساس الحاجة

إلى التضحية في سبيل الدين أو في سبيل عمل خيري دنيوي فقد ارتكب التكاثر، إذ بخل بما ضحّى به الآخرون، أو بما كان دينه أو أمته بحاجة إليه. والأمة التي تصاب بهذا العيب وتتردد في تقديم التضحيات تهلك وتباد حتمًا، ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.. أي أن هذا المرض يؤدي إلى هلاك الأمة.

وهناك سؤال آخر: هل التكاثر والتفاخر ممنوع كليًّا؟

الجواب: إن التكاثر المذكور هنا هو ما يؤدي إلى الهلاك، كما قال الله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.. أي أنه ألهاكم عن الحسنات كلها حتى أوشكتم على الهلاك، مما يعني أن التفاخر بالحسنات وبما يحثّ الآخرين على الصلاح والتقوى ليس بممنوع. إذن، التفاخر نوعان: الأول ما يوصل الإنسان إلى المقابر، والثاني ما ينفخ الحياة في الناس. والأول ممنوع والثاني جائز. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ." (ابن ماجة: كتاب الزهد، ومسلم: كتاب الرؤيا).. أي أن الله تعالى جعلني سيد الناس جميعًا، وليس في ذلك مدعاة للفخر.. أي هذا لا يعني أن أحتقركم وأعتبر نفسي أفضل منكم، بل من واجبي أن أخدمكم وآخذكم إلى أرقى الدرجات رغم كوني سيد ولد آدم.

وكذلك يقول ﷺ: "تَزَوّجوا الوَلودَ الوَدودَ، فإني مُكاثرٌ بكم الأمم." (أبو داود: كتاب النكاح).. أي تزوجوا المرأة التي تلد وتحبّ كثيرا، لأنني مفاخر بكم الأمم الأخرى. وهذا يعني أن الإسلام لا يبيح كثرة العدد فحسب، بل يستحبه، ولكن بعض الكثرة شر، ولذلك قال النبي ﷺ إني لا أريد أن تسبقوا الأمم الأخرى كثرةً فقط، بل أود أن تكونوا صلحاء أطهارا مع كثرتكم، لكي أفاخر بكم الأمم الأخرى يوم القيامة. فكلمة الولود هنا تشير إلى الكثرة وكلمة الودود إلى التفاخر، لأن الرسول ﷺ ما كان ليفخر بأمته بكثرتها فحسب، إنما بأخلاقها الحسنة. وأي شك في أن الوالدين إذا قاما بتربية أولادهما على نحو حسن –سعيًا منهما أن لا يبقى صلاحهما منحصرا فيهما، بل ينتقل إلى أولادهما نسلا بعد نسل– فسوف يُخرجون أجيالا عظيمة تكون مفخرة للإسلام وللرسول ﷺ؟

من المؤسف أن قليلا هم الذين يربّون أولادهم تربية سليمة. إنهم يتحلون بالتقوى والروحانية والأخلاق السامية والرأفة والشفقة والحلم والعطش العلمي والتسابق في الخيرات، ولكنهم لا يهتمون بنقل هذه المحاسن إلى أولادهم. لا شك أن بعض محاسن الآباء تنتقل إلى أولادهم بالوراثة، لكن إعداد الجيل بمستوى أعلى منوطٌ إلى حد كبير بتربيته تربية عالية، ومن واجب المؤمن ألا يغفل أبدًا عن هذا الأمر المهم جدا. فلو أن كل إنسان –صغيرا أو كبيرا– اعتنى بتربية أولاده تربية حسنة سعيًا منه أن يكونوا أكثر منه إخلاصا وفداء للإسلام لما تطرق الانحطاط إلى المسلمين. إن أكبر أسباب انحطاط الأمة عدم العناية بتربية الأولاد، فيصبح أكثرهم عاطلين، وبالتالي تذهب ريح الأمة كليّةً. فالأمر الذي يجب التركيز عليه هو أن تكون أجيالنا القادمة أكثر منا صلاحا وورعا، لأن هذا هو الأمر الذي يمكن أن يتفاخر به الرسول ﷺ، أما الكثرة العددية فليس مما يجلب الاطمئنان.

ثم هناك قول لسيدنا علي رضي الله عنه: "أنا قطعتُ خرطوم الكفر بسيفي، فصار الكفرُ مُثْلةً" (روح البيان).. أي أن الله تعالى قد وفّقني لخدمة الإسلام حتى قضيت بيدي على كل ما يتعلق بالكفر والوثنية، فلا يقدر الكفر أن يرفع رأسه أمامي. لكن قوله رضي الله عنه هذا لا يعني أنه كان مصابًا بالكبر واحتقر الآخرين بسبب خدماته، بل المراد أنه يتمنى أن يتأسوا بأسوته في خدمة الإسلام فيسعوا لخدمته مثله.

كما أوصى الله المؤمنين في القرآن الكريم بقوله ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:١٤٩). والاستباق لا يعني أن يسعى المرء للسبق، بل يعني أن يحاول التقدم آخذًا معه الآخرين. فهذه الآية لا تعني أن يتقدم الإنسان بنفسه في الحسنات فقط، بل عليه أن يشرك الآخرين في سباق الخيرات أيضا، فيسعى الجميع للتقرب إلى الله تعالى متكاتفين. والأمة التي تتحلى بروح الاستباق تقطع في ساعاتٍ من أشواط الرقي ما يقطعه الآخرون في شهور وسنين. فمثلا إذا كان المرء قد قرأ جزءًا من القرآن فعليه أن يعلِّمه الآخرين، عملاً بقوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، وإذا كان قد تعلّمَ ترجمةَ معاني هذا الجزء فعليه أن يعلّم الآخرين ترجمة معانيه، وإذا كان

مطّلعًا على معارف القرآن وأسراره، فعليه أن يسعى لتعليم الآخرين إياها. باختصار، إن روح الاستباق ترفع الأمة جدًا وبسرعة فائقة.

وقال الله تعالى في موضع آخر ﴿وَمِنْهُم سابِقٌ بِالْخَيْراتِ﴾(فاطر:٣٣)، وقال أيضا ﴿فالسّابِقَاتِ سَبْقًا﴾(النازعات:٥). فمن علامات المؤمنين أنهم يتنافسون في الخيرات ويسعون لسبق الآخرين فيها. وكما قلت إن هذه هي علامة الأمم التي تتحلى بروح الحياة، فإنها تسعى دائما إلى أن تسبق الآخرين في الخيرات ولا يسبقها غيرها.

وقال الله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(آل عمران:١٣٤).. أي عليكم أن تتقدموا بسرعة ساعين لنيل مغفرة الله تعالى في أسرع وقت. ولا شك أن الذين يتقدمون إلى مغفرة الله بسرعة سيسبق بعضهم ويتأخر البعض، وبالتالي سيفتخر السابق أنه أسرع وفاز بمغفرة الله تعالى، ويتحسر المتأخر ويتأسف على أنه أضاع الوقت ولم يحظ بمغفرة الله نتيجة تقصيره.

باختصار، توضح هذه الآيات أن بعض أنواع التفاخر ليس ممنوعا في الإسلام. أما التكاثر الذي يحث المرء على التفاني في خدمة الإنسانية ويزيده روحانيةً وتقوى ويرفع مستوى أمته فليس بسيئ، بل هو حسن، ومن واجب كل عاقل أن يشترك في هذا التكاثر، إذ لا تحيا الأمة من دونه. فمثلا لو بعثتَ ابنك إلى إحدى الكليّات، فقال لن أذهب لأن زملائي لا يذهبون، ولو تعلمتُ فيها فيتأخرون عني، فلا شك أن قوله حماقة، لأن سبْقَه الآخرين بالتخرج من الكلية نافع لأمته وليس بضار لها، لأنه إذا تعلّم فسوف يعلّم الآخرين ويرفع مستوى الأمة علميًا.

فليس كل تكاثُر وتفاخر ممنوع، إنما الممنوع منه ما يؤدي بالإنسان إلى المقابر، ولهذه الحكمة نفسها أردف الله تعالى قولَه ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ بقوله ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.. ذلك أنه فيما يتعلق بالموت المادي فإنه بنفسه يأتي إلى الإنسان، أما الموت الديني والأخلاقي أو القومي فيدعوه الإنسان بنفسه، فإنه بقَدَمه يمشي إلى قبره ويستلقي فيه. وبيان هذا المعنى كان محالاً لو قال الله تعالى هنا "حتى متم"، بدلاً من قوله ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾. فقول الله هذا بيّن موضوعا جديدا رائعا منبّهًا الناس إلى أمرٍ مهمٍّ للغاية وهو أن أكبر أسباب هلاك الأمم التكاثُرُ غيرُ المسموح به

والاستهانة بالأخلاق الحسنة التي هي أساس حياة الإنسان أُمّةً وديناً، لأن هذا التكاثر يلقيهم في الحضيض أخيرًا حتى يستولي عليهم الموت كلية، فيصبحون جسدًا بلا حياة فيما يتعلق بسباق الأمم.

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

التفسير: (كَلاَّ) تفيد الزجر دائما، وقد وردت هنا لتحذير أهل مكة وزجرهم، حيث يحذرهم الله تعالى أن حالتكم خطيرة جدا. فإنكم لا تصدّقون ما قلنا لكم بأنكم قد سقطتم في الحضيض جراء تكاثُركم حتى وصلتم إلى المقابر، بل تعتبرون قولنا ضربًا من الخبل، وستعلمون بعد أيام أن ما قلناه لكم حق وصدق، وأنه لا يوجد فيكم آثار الحياة.

لو كانت المقابر هنا القبور المادية لم يستقم هنا قوله تعالى ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ألم يكن أبو جهل وعتبة وشيبة يسلِّمون بأنهم سيموتون حتما؟ وما داموا يعترفون أن الإنسان عرضة للفناء وأنه جاء إلى الدنيا بعمر قصير، فكيف يصح أن يقال لهم: ها نحن نخبركم مرة بعد مرة أنكم ميتون حتما؟ هذه مهزلة. إذا كان المرء يعترف بشيء فتأكيدك إياه له يماثل قولك لأحد: إنك إنسان، والله إنك إنسان، تالله إنك لإنسان، فكل من يسمع كلامك سيضحك عليك ويعتبرك مجنونا. إذن، لو كانت المقابر هنا بمعنى القبور المادية لما كانت هناك حاجة أن يقول الله تعالى هنا ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، لأن كل فرد من الكفار يسلِّم بهذا الموت، والذي يسلِّم به الجميع لا معنى للتأكيد عليه. فثبت أن المقابر هنا بمعنى مقابر الذل والهوان والدمار، وهذا ما كان ينكره كفار مكة أشد الإنكار. أما المقابر الترابية فكان أبو جهل يسلم بوجودها، لكنه ما كان ليسلِّم بأنه سينهزم أمام محمد ﷺ. فلا شك أن الدمار القوميّ هو الذي أُطلق عليه المقابر هنا، حيث حذر الله الكافرين وقال لهم: اعلموا

أنكم قد وصلتم إلى المقابر، وها نحن نحذركم مرة أخرى، وسوف تعلمون أن ما نقوله هو الحق.

أما التكرار الوارد في قوله تعالى ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فقد قال البعض إنه للتأكيد (تفسير الرازي)، إذ كان من عادة النبي ﷺ أن يعيد كلامه في مناسبات خاصة، وعليه فسوف يُعتبر هنا محذوف والتقدير: "كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ أقول كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُون".

أما سيدنا عليّ ﷺ فيرى أنه ليس تكرارا، بل هو إشارة إلى حدثين: الأول في القبور والثاني في النشور. (روح المعاني)

وأرى أن الجملة الأولى تتعلق بالدنيا والثانية بالآخرة، كما قال الله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾(الإسراء:٧٣).. أي أنهم سيرون مصير أعمالهم في الدنيا كما يلقون العذاب في الآخرة.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٦﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٨﴾

التفسير: هذه الآيات استمرار للموضوع السابق حيث يقول الله تعالى هنا لكفار مكة ها إننا نحذركم مرة أخرى. لماذا لا تدركون أنكم قد سقطتم في هوّة الهلاك والدمار؟ إن هلاككم قطعي يقيني، إذ لم يبق فيكم علامة للحياة، بل تهيأت كل الأسباب لهلاككم. فقد نسيتم الله تعالى، وتقاعستم عن أداء حقوق البشر كلية، مع أن أداء حقوق الله وحقوق العباد هما العلامتان لحياة الأمم. إن الأمة التي يحيا الله في قلوب أفرادها هي التي تسمى حية، والإنسان الذي تتّقد في قلبه عاطفة خدمة الإنسانية هو الذي يسمى إنسانا حيًّا، أما أنتم فلا تؤمنون بقدرة الله، كما أن قلوبكم خالية من مشاعر خدمة الإنسانية. ليت عندكم علم اليقين حتى تدركوا أن ما نقوله لكم حق وصدق. دَعُوا جانبًا ما ننبئكم به من أنباء الهلاك التي لا

تصدّقوها، وفَكِّرُوا -على الأقل- أن كل فعلٍ في الدنيا يأتي بنتيجة طبيعية حتمًا، وكل إنسان حين يقوم بعمل فإنه يعلم ماذا ستكون نتيجته. فهلا فكرتم في حالتكم من هذا المنظور المادي على الأقل؟

يقال إن أحدًا رأى جُحا على شجرة وهو يقطع الغصن الذي هو جالس عليه. فقال له: يا جحا، لا تقطعه وإلا فستسقط على الأرض. فقال له: من ذا الذي أخبرك أني سأسقط على الأرض؟ أتعلمُ الغيب؟ اذهبْ لشأنك. وبعد قليل انقطع الغصن وسقط جحا على الأرض، فجرى وراء الرجل وقال له: لا شك أنك من أولياء الله، إذ تحقق ما قلتَ وسقطتُ من الشجرة. فقال الرجل: أنا لستُ بوَلِيّ، وإنما أخبرتك بالنتيجة الطبيعية الحتمية، فما دمت تقطع الغصن الذي أنت جالس عليه فلا بد أن تسقط حتمًا.

فكل فعل لا بد له من نتيجة طبيعية تظهر في الدنيا، وكل عاقل يدرك ماذا ستكون نتيجة فعله، لذلك يقول الله تعالى هنا للكافرين: لقد فقدتم الصواب كلية ولا تفكرون في مصيركم مطلقا. لو فكرتم في القضية من ناحية علمية فقط لأيقنتم بأن موتكم وشيك، وأن أسباب هلاككم محيطة بكم من كل طرف وصوب، ذلك لأن بعض أسباب هلاك الأمم تكون سماوية وبعضها تكون مادية، ومن الأسباب السماوية: كفرهم بالله تعالى وبأنبيائه ومخالفتهم لأحكامه، ومن الأسباب المادية: الظلم وعدم العناية بالفقراء والمساكين والانغماس في الملذات ليل نهار، وكلا النوعين من أسباب الهلاك موجودة فيكم. لقد أثرتم سخط الله تعالى، وأسأتم معاملة البشر، فكيف تظنون أنكم في مأمن من الهلاك؟ ولذلك يقول الله تعالى للكافرين ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.. أي يمكنكم أن ترفضوا قولي وتعتبروه كذبا وباطلا، ولكن هلا فكّرتم في حالتكم من الناحية الدنيوية؟ ليتكم تتمتعون بعلم اليقين فتدركوا أن الأمة التي تفتقر إلى التعليم والعدل والنظام ولا

تهتم بالصدقات ومعاملة الناس بالرأفة والرحمة فهَلاكُها مؤكد لا يحتاج إلى أن يبيّنه نبيّ. فإذا كنتم ترفضون ما أقوله لكم، فليته يتيسر لكم علم اليقين لتروا الجحيم أمامكم. إنكم تدركون جيدًا أنكم لا تهتمون بتعليم القوم، ولا تعدلون بينهم، وتهضمون حقوقهم، وتفتقرون إلى الأمانة والتقوى والورع، ولا تنفقون الأموال إنفاقا سليما، بل تدمرون أموال آبائكم منغمسين في الملذات، ولو تدبرتم في هذه الأمور بجدية لرأيتم الجحيم ماثلة أمامكم من دون أن تصدّقوا ما أقوله لكم.

لقد قال البعض عن قوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحيمَ﴾ أنه جوابُ قسمٍ محذوف، لأن تيسُّر علم اليقين للكفار لا يستلزم رؤيتَهم للجحيم.

هذا القول ليس بصحيح، لأن الرؤية أنواع: رؤية عقلية أو علمية، ورؤية العين والمشاهدة. وعلم اليقين أيضا يمكّن من الرؤية العلمية، لأن المرء إذا علم بناء على الأدلة أن المصيبة قادمة، شعر قلبه بالألم. وقد بين المسيح الموعود عليه السلام أن هذه الآية تذكر أنواع العلم الثلاثة، علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين المذكور في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾. (فلسفة التعاليم الإسلامية، الخزائن الروحانية ج ١٠ ص ٤٠٢). فقوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ يشير إلى الرؤية العقلية أو العلمية.

ثم قال الله تعالى ﴿ثم لَتَرَوُنَّها عَيْن اليَقين﴾.. أي لم تتيسر لكم الرؤية العلمية بعد، ولكني أؤكد لكم أنه لن تتيسر لكم الرؤية العلمية فقط بل تتيسر لكم الرؤية العينية أيضا عن قريب، بمعنى: لن تشعروا باقتراب الدمار فحسب، بل سوف يحل بكم هذا الدمار فعلاً فترونه بأم أعينكم، لأن الله تعالى قد أخبرني أنكم هالكون حتما.

ومن معاني هذه الآيات أنكم سترون هذا الدمار في الدنيا أولا، ثم ترون في الآخرة عذابًا أليما.

ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

التفسير: يظن الذين يجهلون العربية أن ﴿النعيم﴾ جمعٌ، وهذا ما كنتُ أرى في صغري، وهذا ما نجده في عامة ترجمات القرآن بالأردية، لكنه خطأ، فالنعيم يعني النعمة وليس النِّعَم.

وعندي أن النعيم هنا هو محمد رسول الله ﷺ. وكأن الله تعالى يقول هنا للكافرين: عندما تهلكون سأسألكم هل كان محمد نعمةً عظيمة أم لا؟ إنه ما زال يحذّركم من السقوط في هوة الهلاك، ولكنكم لم تصغوا لنصحه، حتى حان وقت دماركم. كم كانت عظيمة النعمة التي بعثناها لكم، لكنكم لم تنتفعوا بها. لقد حذّركم مرارا ولكنكم لم تلقوا لتحذيره بالاً و لم تنجوا من الهلاك.

وقد يكون المراد من ﴿النعيم﴾ كل نعمة عظيمة، وعليه فالمراد من الآية أن الله تعالى سوف يعدّد عليهم نعمه الكبرى قائلا: لقد أعطيتكم كذا وكذا من النعم العظيمة، لكنكم ضيعتموها كلها. لقد أعطيناكم المال، فكنـــزتموه في بيوتكم و لم تنفقوا على الفقراء، و لم تتصدقوا به على اليتامى والمساكين. لقد أعطيناكم الحُكم، فظلمتم الناس. لقد أعطيناكم العز، فاحتقرتم الناس. لقد أعطيتكم كل نعمة عظيمة، فأسأتم استعمالها.

باختصار، فالنعيم يمكن أن يفسَّر بمعنيين: النعمة الكاملة وهو محمد رسول الله ﷺ، والمعنى أن الله تعالى سيقول لهم: لقد بعثت لكم محمدًا فلم تعملوا بنصائحه، والمعنى الثاني أن الله سيسألهم عن كل نعمة عظيمة من مال وعز ونفوذ وحكم ويقول: لقد أنعمت عليكم هذه النّعم العظيمة فما الذي انتفعتم منها؟

إنه لمما يسبب الندم الشديد للإنسان أن تظهر نتيجة خطئه فيقال له: لقد حذرناك من هذا فلم تأخذ الحذر، ونصحناك في وقت كذا وكذا فلم تنتصح.

هكذا سيعامل الله هؤلاء المجرمين فيذكرهم بكل نعمة كبيرة أو بالنعمة الكاملة بشخص الرسول ﷺ قائلاً: كيف ساغ لكم -رغم ذلك- أن تركنوا إلى الإباء والاستكبار؟ لقد حاولتُ إنقاذكم رغم أني إلهكم، فلم تريدوا أن تنجوا من الهلاك مع كونكم عبادًا لي. وهكذا سيلومهم الله تعالى ويدينهم بتذكيرهم بكل نعمة عظيمة.

هذا المعنى بينتُه من منظور الآخرة، أما من منظور الدنيا فإن الأمم الهالكة أيضا سترى يومًا تُسأل فيه عن النعيم. تتأسف الأمم عند اقتراب هلاكها قائلة: لقد أتيحت لنا فرصة كذا لكننا فوّتْناها، وسنحت لنا فرصة كذا لكننا لم ننتفع منها. ليتنا تَنبّهْنا إلى الخطر و لم نحفر قبورنا بأيدينا.

ذات مرة ذهب سيدنا عمر رضي الله عنه إلى الحجّ في عهد خلافته، وبعد فراغه من الحج جاء كبار القوم يسلمون عليه ويهنئونه كما نفعل يوم العيد. و لم تكن في تلك الأيام صالات كبيرة لجلوس الناس، إنما كانت غرفًا صغيرة لا تتسع إلا لقليل من الناس. وكان عمر رضي الله عنه من عائلة شهيرة بعلم الأنساب، فحضر إليه أولاد عِلْية القوم هؤلاء ظانين أنه سوف يخصهم في مجلسه بإكرام أكثر من غيرهم لمعرفته بما كان آباؤهم وعائلاتهم يحظون به من عز واحترام بين الناس. فلما حضروه أكرمهم بالجلوس عنده، وأخذ يتحدث معهم، و لم يمض وقت طويل حتى جاءه أحد العبيد المسلمين، فقال عمر للجالسين: تأخروا قليلا، وأفسحوا له المكان. فتأخروا، فأجلس عمر هذا العبد قريبا منه. ثم أخذ في الحديث، وبعد برهة من الزمان جاءه عبد مسلم آخر، فأمرهم عمر بإفساح المكان له وأجلسه بالقرب منه، وما إن جلس حتى جاءه عبد مسلم ثالث، ثم رابع وخامس ثم سادس وسابع، وفي كل مرة كان عمر رضي الله عنه يأمرهم بإفساح المكان له. ويبدو أن الله تعالى أراد ابتلاء هؤلاء الكبار ليكشف لهم أن العزّ كله في خدمة الإسلام، لا في كون المرء من عائلة

عريقة. فلم يزل هؤلاء العِلية يتأخرون في مجلس عمر ﷺ ويفسحون المجال للصحابة العبيد حتى وصلوا مكان الأحذية، ثم خرجوا من المجلس وقالوا فيما بينهم: لقد رأيتم ما لقيناه من الذل والهوان، ولم نكن نتوقع ذلك من عمر، إنه يعلم أسرنا العريقة التي ننحدر منها، ولكنه لم يكترث لذلك، وفضّل علينا هؤلاء العبيد في مجلسه. فقال أحدهم وكان أذكاهم: ماذا تقولون؟ ألا تعلمون أن الذَّنْب ذنبُنا لا ذَنْبَ عمر. لقد جاء محمد رسول الله ﷺ، ولم يزل يدعو الناس إلى الإيمان به، لكن آباءنا كفروا به كل مرة وآذوه أشد الأذى، فإذا عوقبنا اليوم بسبب ذلك فأيّ ذنب لعمر في ذلك؟ لقد كفر آباؤنا بمحمد رسول الله ﷺ، بينما آمن به هؤلاء العبيد وضحّوا للإسلام بكل غال ورخيص، ولذلك فضّلهم علينا اليوم، ولو أن آباءنا ضحوا في سبيل الإسلام أيضا لخصنا اليوم بالعز والإكرام. فما داموا لم يضحوا بشيء عندها، بل عارضوا الإسلام فلا يحق لنا أن نشتكي إذا كان عمر قد فضّلهم علينا. فقالوا فيما بينهم: هذا صحيح، ولكن هل من سبيل لدفع هذا الذل والخزي؟ ثم قالوا: تعالوا نذهب إلى عمر ونسأله. فجاءوه وكان المجلس قد انفضّ وذهب الصحابة إلى بيوتهم، وقالوا: لقد رأيتَ ما حدث اليوم، وقد جئناك لنحدّثك بشأنه. فلما كان عمر ﷺ يعلم جيدا ما كان يتمتع به هؤلاء الكبار من قوة ومَنَعَة، وما كان لآبائهم من عز ومجد، فقد اغرورقت عيناه لما سمع كلامهم وقال: لقد كنتُ معذورًا فيما فعلتُ، فهؤلاء قوم قد آمنوا برسول الله ﷺ حين عارضته الدنيا كلها، وتحملوا كبار المصاعب في سبيل الإسلام، وما دام الله تعالى قد أعزهم في الإسلام فمن واجبي أن أُكرمهم في مجلسي. فقال القوم: نحن نعلم أن لا ذَنْبَ لك فيما فعلتَ، إنما الذنب ذنبنا، وإنهم يستحقون هذا الإكرام بلا شك، لكننا نسألك هل من كفّارة تمحو من جبيننا وصمة العار هذه؟ فلما سمع عمر ﷺ قولهم أخذته الرقة، فلم يطق أن يجيب بلسانه، إنما أشار بيده ناحية الشام، حيث

كانت الجيوش الإسلامية تحارب جنود قيصر الروم، فكان يعني أنكم لو انضممتم إلى جنود المسلمين وضحيتم بأرواحكم في سبيل الإسلام فلعل ذلك يكون كفّارةً عن هذه الذنوب. ففَهِمَ أولئك الفتية قوله فما لبثوا أن خرجوا من مجلسه وركبوا الإبل متوجهين إلى أرض المعركة. ويخبرنا التاريخ أنه لم يعُدْ أحد منهم حيًّا، بل استُشهدوا هنالك جميعا. (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لابن الجوزي ص ٩٨)

فلا شك أن الله تعالى سيسأل العبادَ يوم القيامة كيف استعملوا النعم التي خوَّلها لهم، إلا أنه من معاني هذه الآية أنه حين يحلّ الدمار بالأمم في الدنيا سيقولون فيما بينهم متأسفين: لقد سنحت لنا فرص كثيرة للرقي، لكنا لم ننتهزها وضيعناها.

باختصار، إن الله تعالى قد علّمنا في هذه السورة وبكلمات وجيزة سرّ نجاة الأمم من الدمار، ولو أنها عملتْ به دائمًا لما حلّ بها الدمار. لقد حذر محمد رسول الله ﷺ الناسَ بكل وضوح أن أكبر سبب لدمار الأمم هو التكاثر، ولكن رغم وجود هذا التحذير الواضح الموجود في القرآن الكريم لا تزال الأمم ترتكب الخطأ نفسه. إنها تنسى نعم الله تعالى، وتركن إلى التكاثر، وتدفع نفسها إلى هوة الهلاك.